

العنوان: الثلج والثلاجون في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي
المصدر: حولية سيمنار التاريخ الإسلامي والوسيط - مصر
المؤلف الرئيسي: سليمان، حجازي عبدالمنعم
المجلد/العدد: ع 1
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 2011
الصفحات: 259 - 295
رقم MD: 158671
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: HumanIndex
مواضيع: الجوانب ، بلاد الشام ، مصر، التاريخ الاسلامي ، عصر المماليك ، الثلج، صانعو الثلج، الجوانب الاجتماعية ، الجوانب الاقتصادية ، نقل الثلج
رابط: http://search.mandumah.com/Record/158671

© 2018 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الثلج والثلاجون
في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي

د.حجازي عبد المنعم سليمان(*)

تُعالج هذه الدراسة موضوعاً بعنوان "الثلج والثلاجون في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، من خلال عرض أهم صعوبات الدراسة والدراسات السابقة وأهمية الدراسة، واستخدام الثلج في الفترة السابقة على العصر المملوكي، والثلاجون وطبيعة مهنتهم ودور الدولة في تنظيم مراكز الهجن والمراكب المعدة بحراً، واستحداث جلبه الثلج براً وطرق جلبه بحراً وبراً، واستخداماته في مصر وبلاد الشام، وأخيراً الثلج والعلاقات السياسية الخارجية.

صعوبات الدراسة

لم ير أغلب المؤرخين المعاصرين في الثلج سوى الوجه القبيح حينما يؤدي إلى الإضرار بالنشاط الاقتصادي ومن ثم توقف عجلة الحياة تقريباً(1)، وقد نوه مؤرخون آخرون وإن كانوا قليلين إلى أهمية الحديث عن الثلج لما في ذلك من فائدة(2)، وإن لم تتعد نظرتهم إليه نظرة من يرى فيه رفاهية لم تتوفر للجميع، ولأجل ذلك لم يُفردوا له مساحة مناسبة، وحرموا الباحثين من المادة التي تجعلهم يقيموه بشكل موضوعي.

وقد نتج عن ذلك قلة المادة التي تعذر معها صعوبة تحديد الشرائح المستهلكة للثلج وتنظيم الثلاجين وتقنيات الحفظ أثناء النقل البري وبخاصة إلى مصر(3)، بينما كان استخدام الثلج أكثر وضوحاً في بلاد الشام – موطن جلبه – نظراً لشيوع استخدامه في الحياة شبه اليومية لدى باعة الفقاع – وهو شراب الشعير المسكر أو البوظة – وغيره، فكان يُباع ويشترى في دمشق وغيرها مثلما كان يُبحث عنه حينما يندر وجوده ويرتفع سعره، فتحدثوا عن سقوطه بكثرة وأوجه الفائدة في ذلك منه:

(*) كلية الآداب–جامعة المنوفية .

"...وقع بدمشق ثلج طول النهار(سنة٧٢٧هـ)...فلما كان ليلة الاثنين...وقع طول الليل ثلج عظيم، وأصبحت دمشق وأسطحتها وطرقاتها وجبالها وغوطتها وأشجارها بيضاً، وكان سمكه وارتفاعه عن الأرض نحو ثلث ذراع...[٤]"، و"...وقع أيضاً بدمشق ثلج طول النهار(سنة٧٣٦هـ) وهب هواء عاصف"[٥]، وفي العام نفسه "...حصل بدمشق مطر كثير، وكذلك يوم السبت وليلة الأحد وقع ثلج كثير وبقي على الأسطحة...وحصل به وبالمطر نفع كثير...[٦]".

بيد أنه كان يُصاحب تلك النغمة أخرى حينما يتعرض المؤرخون أنفسهم إلى الأضرار التي يُحدثها سقوط الثلج وما ينتج عن ذلك أحياناً من غلاء أسعار بعض المواد الأخرى المرتبطة بالتدفئة كالفحم، حيث سقط "...مطر وثلج وبرد عظيم، وكذلك في سائر بلاد الشام، بحيث أبيع رطل الفحم بدرهم.."، و"...فيها...وصل كتاب من نائب بعلبك يخبر فيه أن وقع بمدينة بعلبك أمطار وثلوج...[٧]"، وأيضاً "...عاد استمرار المطر والثلج كل يوم...وأخرب بيوتاً كثيرة، ورمى أشجاراً كثيرة بغوطة دمشق، وكان ضرره أكثر من نفعه...والدواب تعوم في الأوحال، ولا تكاد تخلص ولا تمشي إلا تقع...[٨]" وذلك في عام ٧٣٧هـ، و"...وقع بدمشق ثلج كثير...وكان قارنه برد مُفرط...وجليد، وطالت مدة بقائه على الأرض وضعفت الخضروات، وفسدت الفواكه من الجليد في المخازن...وأما دمشق فقل أن يقع بها الثلج على هذه الصورة[٩]".

والواقع أن حرص بعض المؤرخين على ذكر أحوال الثلج كل عام إذا ما توافرت لهم معلومة عن ذلك[١٠] يذكرنا بما كان يفعله مؤرخو مصر حينما كانوا يتتبعون أخبار الزيادة والنقصان في ماء النيل سنوياً "...وفيها قلت المياه جداً بدمشق، وغلا سعر الثلج بالبلد...وأما نيل مصر فإنه كان في هذه السنة في غاية الزيادة والكثرة...[١١]"، حقاً لا يوجد ثم وجه دقيق للمقارنة بين أخبار ماء النيل في مصر والثلج في بلاد الشام، بيد أن معالجة المؤرخين لسقوط الثلج وقت حدوثه بشكل دوري - تقريباً - وإبرازه كأحد أوجه قسوة الطبيعة يعكس ما كان يعانيه بسطاء الناس من إضرار الثلج والبرد بزراعاتهم وحيواناتهم وبيوتهم وأشجارهم وغلق

الطرق وما إلى ذلك من أوجه الأنشطة الحيواتية الأخرى أسوة بما يحدث حينما ينقص ماء النيل أو يزيد[١٢] .

بينما حرص بعضهم على معالجة الوضع الآخر والمتعلق بالجوانب الترفيهية الممثلة في استخدام الثلج في الأشربة والأطعمة وتبريد المياه وشراب الفقاع وما إلى ذلك[١٣]، وإن كان ذلك حظه قليل مقارنة بالأوجه الأخرى، وهذا مما يزيد صعوبة الدراسة، لأن الغرض الذي قُدمت له المادة لا يتوافق مع منهج الباحث؛ فالأول يُبرز جانباً من غضب الطبيعة وقسوتها، والآخر يهدف إلى إيضاح دور ترفيهي شكل جانباً مهماً من النشاط البشري في تلك الفترة، واللافت للنظر أن المادة المقدمة عن قسوة الطبيعة تكاد تفوق بكثير المقدمة عن الثلج كوسيلة رفاهية، وبسبب نقص المادة العلمية فقد ظلت بعض الجوانب مغلقة أمام البحث وبخاصة كيفية بيع الثلج في دمشق وما إذا كان يُباع في مصر للعامة من الأثرياء أم ظل استخدامه حكراً على القصر السلطاني وبعض كبار موظفيه، وتفصيل عملية دفع الرسوم والضرائب وقيمتها وتغيرها خصوصاً في بلاد الشام، وما إذا كانت عمليات جلبه إلى مصر قد ظلت قائمة بالكثرة ذاتها حتى نهاية العصر المملوكي.

أهمية الدراسة

ولكن ما أهمية الدراسة وجدواها وبخاصة أن المؤرخين الذين أشاروا إلى عملية تنظيم جلب الثلج قد أقروا صراحة بأنه وسيلة من وسائل الترفيه المبالغ فيه "...وكانت الملوك قد اعتادت الرفاهية مع اقتدارها على تحصيل الأشياء العزيزة وولوعهم بجلبها من الأماكن البعيدة إكمالاً لحال الرفاهية وإظهاراً لأبهة الملك، دعاهم كمال الرفاهية والأبهة إلى جلب الثلج من الشام إلى مصر..."، بيد أنه إذا كان الثلج بالنسبة للسلاطين والأمراء بمثابة رفاهية وليس مقوماً من مقومات الحياة، ومن ثم قد يكون الموضوع قليل الأهمية بالرغم من أن الدراسات التي تُعالج موضوعات متكاملة في وسائل التسلية والترفيه قد بُذل فيها جهد طيب للوقوف على أحد أوجه الحياة في العصر المملوكي وغيره، وكذا الحال في أهمية دراسة الثلج أنه بالرغم من كونه أحد وسائل الترفيه وأنه شغل جانباً من النشاط الإنساني في حقبة تاريخية محددة بمكان

وزمان فإن ثمة جهد كبير كان يُبذل من قبل الدولة التي أشرفت على الجلب والنقل والتخزين، ناهيك عن المجهود الضخم الذي بذلته طائفة كبيرة من الشاميين الذين تخصصوا في عمليات قطع الثلج ونقله وتخزينه.

ويُعد هذا الجهد أحد الجوانب المهمة التي تُقدم دراسة للتاريخ من أسفل قاع المجتمع وليس من قصوره وحكامه. أما في بلاد الشام فإنه بالرغم من أن الثلج - كما الحال في مصر وغيرها - لم يكن من أساسات الحياة ولكنه نتيجة لوفرته وقرب أماكن سقوطه صار يُستخدم مع الوقت لدى شريحة واسعة من العامة(١٤) .

الدراسات السابقة

وقد تعرض لهذا الموضوع - عرضاً - عدد من المؤرخين يتصدرهم نظير حسان سعداوي في كتابه البريد في الدولة الإسلامية، ورئيفة حلواني في كتابها البريد في عصر المماليك، ومحمد فتحي الشاعر في كتابه الشرقية في عصري سلاطين الأيوبيين والمماليك، وسند أحمد في رسالته عن البريد في العصر المملوكي، ومنال زكي الشحات في رسالتها للماجستير بعنوان نيابة دمشق في العصر المملوكي، وعطية القوصي في بحث نشر له ضمن الكتاب التذكاري للدكتور رءوف عباس عن الثلج ووسائل التبريد في العصر الفاطمي، وغيرهم ممن يشتركون مع الآخرين في كونهم لم يُخصصوا أعمالهم للثلج في حد ذاته، ولم تُفرد دراساتهم له ما يسمح بالوقوف على الموضوع بشكل متكامل أو حتى شبه متكامل سواء في مصر أم بلاد الشام خلال العصر المملوكي.

الثلج قبل العصر المملوكي

شاع استُخدم الثلج قبل عصر المماليك على نطاق واسع سواء داخل مصر وبلاد الشام أم في الدول القريبة منهما والمحيطة بهما، وذلك استكمالاً لغرض الرفاهية ذاته الذي توسع فيه المماليك، فيُشير كل من العمري والقلقشندي وابن شاهين وغيرهم إلى أن ملوك مصر - وغيرهم ممن لا تُثلج حواضرهم - قد جلبوا الثلج على صفة الإطلاق وليس سلاطين الأيوبيين والمماليك، وبخاصة أن الإشارة إلى مراكب الثلج في عصر بيبرس لم تُوضح ما إذا كان مستحدثاً أو جديداً على مصر

وإنما حملت الإشارة ضمناً أن الثلج كان يُجلب إلى مصر بحراً قبل ذلك(١٥)، وأن عددها بلغ ثلاث مراكب في عصر بيبرس وأنها دامت على ذلك بعد عصره وزادت فيما بعد.

ولعل هذا مما يدعو إلى التعرف على الثلج واستخداماته وجلبه في الفترة السابقة على العصر المملوكي؛ فكان الحجاج بن يوسف الثقفي من أوائل الذين جلبوا الثلج إلى العراق(١٦)، كما حرص الخلفاء العباسيون وكبار رجال دولتهم من الوزراء والكتاب والقادة ورجال الحكم على التزود بالثلج، سواء في بغداد أم خارجها، مثل المأمون والواثق وغيرهما اللذين كان يُحمل إليهما نوع من البطيخ مُعبأ في قوالب من الثلج كي لا يفسد، كما حرصوا على توفير الثلج في مواسم الحج، حيث كانوا يوزعونه على الحجاج مضافاً إلى الماء المسكر، أو يُضيفونه على عصير القصب "...وفيها (أي سنة ١٦٠هـ) حج المهدي وفرق في الناس أموالاً عظيمة...وحمل الثلج إلى مكة..."، وحرص هارون الرشيد على توفر حمولات الثلج في أسفاره وكان يُضايقه شرب الماء بدونه(١٧)، وقد شاركهم في ذلك رجال دولتهم وحريمهم وأولادهم "...وفي سنة ٣٦٦هـ حجت جميلة بنت ناصر الدولة صاحب الموصل...وسقت جميع الوفد سويق السكر والثلج...(١٨)".

ويبدو توسع بعض الخلفاء العباسيين في جلب الثلج من كثرة الإشارات التي تؤكد أنهم جعلوا الثلج ضمن الرواتب التي تُجرى على بعض الكتاب والوزراء يومياً أو شهرياً، وهذا يعكس ضخامة الكميات التي قُدرت بآلاف الأرطال للفرد الواحد "...وفيها (أي سنة ٣٦١هـ) وزر ببغداد أبو طاهراً بن بقية ولُقب بالناصح...له راتب كل يوم من الثلج ألف رطل...(١٩)"، وآخر كان "...راتبه من الثلج في اليوم ألف رطل...(٢٠)".

ونتيجة لكثرة الكميات التي حصل عليها الوزراء فقد اعتاد بعضهم توزيع الثلج على العامة في أيام الحر على ما فعل الوزير العباسي علي بن محمد بن الفرات سنة ٣٠٤هـ عقب تقلده الوزارة "...وكان ذلك النهار شديد الحر فسقي في ذلك النهار وتلك الليلة في داره أربعون ألف رطل ثلج...(٢١)"، وثمة ما يُشير إلى تخصص

بعض العراقيين في بيع الثلج بالعراق، وأساء بعضهم استغلال ندرته وباعوه بأسعار وصلت أحياناً إلى بيع الرطل من عشرة آلاف إلى عشرين ألف درهم وبالطبع فإنه لم يكن يقدر على مثل ذلك السعر سوى الأثرياء(٢٢)، ناهيك عن قيام بعض أمراء بغداد - على غرار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (ت ٣٠٠هـ/٩١٣م) - باستخدام متخصصين من الثلاجين يقومون بالإشراف على شراب الأمراء وثلجهم وما إلى ذلك(٢٣)، مما يُشير إلى أن الأمر كان له أهمية بالغة في تلك الفترة من التاريخ العباسي.

واستخدم الثلج في الفترة ذاتها في مصر، وعلى ما يبدو فإنه اقتصر استخدامه على المترفين والأثرياء من سكان القاهرة، فيُشير عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن إبراهيم البغدادي ابن الثلاج (ت:٣٨٧هـ) إلى توفر الثلج لدى جده في حلوان "...قال لي: ما باع أحد من أسلافي ثلجاً وإنما كان جدي مترفاً يُجمع له ثلج كثير، فمر بعض الخلفاء بحلوان فطلب ثلجاً فما وجده إلا عند جدي فوقع منه بموقع وقال: اطلبوا عبد الله الثلاج فُعرف به...(٢٤)"، ولا ريب أن دلالة طلب الثلج لأحد أهم رجال الدولة تعني معرفة رجال القصر المسبقة بتوفر الثلج في حلوان وإلا ما بحث عنه أو كُلف أحداً بإحضاره.

وفي ظل الفاطميين في مصر كان الثلج من مفردات رواتب بعض كبار الأمراء، وتود الرواية التي لدينا إلى عصر الحاكم بأمر الله الذي "...أجرى لابن عمار ما كان يجري له في أيام العزيز ولآله وحرمه، ومبلغ ذلك...حمل ثلج عن يومين فأجرى له ذلك مدة حياته...(٢٥) "، وهذا يعني أن الرسم بذلك لم يكن قاصراً على خلافة الحاكم وإنما سبقه بها غيره ومنهم الخليفة العزيز على ما تُشير الرواية السابقة، وحينما زار ناصر خسرو القاهرة في أواخر العصر الفاطمي فإنه أوضح هذه الإشكالية بصورة أكثر تفصيلاً فجاء في وصفه "...وجرت العادة في مصر أن يُحمل إلى دار الشراب السلطانية شرابخانة(٢٦) كل يوم أربعة عشر حملاً من الثلج كان لمعظم الأمراء والخواص راتب من هذا الثلج ويُصرف منه لمن يطلبه من مرضى المدينة وكذلك كل من يطلب من أهلها مشروباً أو دواء من الحرم السلطاني فإنه

يُعطاه...[٢٧]"، والواقع أن رواية ناصر خسرو تقدم معلومة لم نقف عليها في العصر المملوكي أو غيره، وهي أنه كان للعامة أو لبعضهم ممن لهم ظروف خاصة نصيب في بعض كميات الثلج الواردة على القصر الخلافي.

وفي العصر الأيوبي نجد عدداً كبيراً من الإشارات الأكثر وضوحاً عن استخدام الثلج، سواء في أوقات الحرب على ما نقف عليه من توفره في خيام سلاطين الأيوبيين في معارك كبرى على غرار معركة حطين[٢٨] ، وتبادل صلاح الدين له مع ريتشارد قلب الأسد في مرض الأخير "...ثم أرسل (أي ريتشارد إلى صلاح الدين) في طلب فاكهة وثلج، فأرسل إليه وهم مع ذلك يُحاصرون البلد أشد حصار...[٢٩] "، كما كان الثلج في خيمة صلاح الدين في خلال مواجهاته مع ريتشارد قلب الأسد في الرملة "...فأطعمه (أي صلاح الدين والضمير عائد على أحد قادته) فاكهة قدمت من دمشق وسقاه ماءً وثلجًا...[٣٠]".

كما استُخدم الثلج في فترات السلم أيضاً، ولعل خلو اليمن من الثلج والفواكه وما إلى ذلك من عوامل الرفاهية كان دافعاً لطلب توران شاه شقيق صلاح الدين العود إلى بلاد الشام حيث يتوفر بها ما يبتغي "...قال (أي توران شاه) لمتولي خزانته: أحضر لنا ألف دينار، فأحضرها فقال لأستاذ داره...أرسل هذا الكيس إلى السوق يشترون لنا بما فيه قطعة ثلج، فقال أستاذ الدار: يا مولانا هذه بلاد اليمن!! من أين يكون فيها ثلج؟...فجعل يُعدد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يُظهر التعجب من كلامه...[٣١]".

وتكفي الإشارة إلى أن الملك العادل كان شديد الحرص على الإقامة في بلاد الشام في فصل الصيف لأنه يتوفر فيها الفاكهة والثلج "...ولما قسم البلاد بين أولاده (الملك العادل) كان يتردد بينهم وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى وكان في الغالب يصيف بالشام لأجل الفواكه والثلج والمياه الباردة، ويشتي في الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد...[٣٢]"، ونظم لهم بعض شعراء عصرهم أشعاراً في الثلج على غرار الأسعد ابن مماتي وغيره[٣٣]. ومما سبق يتضح شيوع استخدام الثلج في مصر

وبلاد الشام والعراق والحجاز قبل العصر المملوكي، وأنهـم شـاركوا غيـرهم فـي استخدام إحدى وسائل الرفاهية.

الثلج في الأدب المعاصر

تُلحظ من خلال الأشعار التي نظمت في الثلج بعض الدلالات التاريخية يتصدرها ربط بعض الشعراء بين توفر الثلج للملوك وبين اكتمال عظمتهم ورفاهية ملكهم، علاوة على إشارة بعضهم إلى استخدام الثلج صيفاً بمزجه بالعساس وفي الشتاء بمزجه بالعسل، وهذا بالطبع مما كان يحدث في بلاد الشام التي يتوفر لها الثلج صيفاً وشتاءً، بيتما كانت البرودة موجودة في مصر شتاءً بشكل طبيعي، إضافة إلى دلالات أخرى يُعبر أغلبها عن خلط الماء بالثلج لتبريده وهو الاستخدام الأكثر شيوعاً للثلج على مختلف العصور، كما تُلحظ إشارة بعض الشعراء إلى دلالات تاريخية مهمة للغاية؛ مثل الإشارة إلى مكان وجود الثلج في أعالي جبل الثلج أو الشيخ[٣٤].

ولم يفت صناع الأدب النثري وبخاصة الذين عالجوا بعض أوضاع المهمشين مثل أخبار الحمقى والمغفلين الإشارة إلى تصورهم للثلج وإلى نوادرهم وملحهم فيه، وهذا على وجه التحديد يُعد رصداً واقعياً لرؤية العامة والبسطاء للثلج وأهميته وجدواه وخواصه ومدى معرفتهم به وما إلى ذلك من قضايا مماثلة[٣٥]، وبخاصة أن الأدب سواء كان شعراً أم نثراً يمثل وجدان المجتمع كما أنه انعكاس له، علاوة على أنه لم يكتب كي يكون مصدراً تاريخياً وبالتالي درجة المصداقية التي يعول عليها حينما نستقي عن الأدب مادة تخدم بعض الجوانب التاريخية التي أهملتها المصادر التاريخية أو تغاضت عنها ترفعاً أو عفوياً.

الثلاجون وتقنية الحفظ ودور الدولة

شدد المؤرخون على أن حفظ الثلج وتخزينه مهمة تحتاج إلى خبراء للحفاظ عليه حتى يصل إلى قلعة الجبل حيث يُخزن في صهاريج خاصة مُعدة لذلك "...ويُجهز بكل نقلة...ثلاج خبير بحمله ومداراته[٣٦] "، بيد أن مهمة الثلاجين كانت تبدأ منذ وقت مبكر، حينما يصعدون إلى قمم جبل الثلج – أو الشيخ – ويختارون قطعة الثلج التي تتحمل طول الطريق دون أن تذوب "...ولا يصل متوفراً إلا إذا أُخذ

من الثلج المجلد...(٣٧)"، وفي هذه الحالة فإنهم يقومون باختيار قطع معينة يعرفونها جيداً ثم يقومون بدكها أو كبسها لمنع الهواء من الوصول إليها "...وأُجيد كبسه واحترز عليه من الهواء فإنه أسرع إذابة له من الماء...(٣٨) ".

ولا نستبعد أن تكون المراكب التي اعتادت نقل الثلج إلى مصر مجهزة بصهاريج لحفظه على الطريقة ذاتها التي يُخزن بها في القلعة أو غيرها، ويُستشف من إلغاء لاجين المنصوري (١٢٩٤-١٢٩٨م) لجلب الثلج على السفن بأنه كان عملاً مضنياً وشاقاً بقوله: "...أنا كنت نائب الشام وأعلم ما يُقاسي الناس في وسقه من المشقة...(٣٩) "، ولأن دمشق كانت تُشرف على الثلج المجلوب إلى مصر براً فإننا لا نفهم لِمَ لمْ يبطل جلب الثلج الذي تُشرف عليه دمشق، بدلاً من إبطال جلب الثلج الذي يأتي بحراً والبعيد عن حدود نيابته وسلطانه، أو أن يقوم بإلغاء الجلب البري والبحري معاً، وفي هذه الحالة فإنه قد يُفهم أن الثلج البري لم يكن يُمثل تلك الصعوبة التي يُمثلها خلال جلبه بحراً ربما بسبب مشاكل البحر الأمنية في ظل الصراع مع القوى الأوربية في العصر الأول من دولة المماليك، علاوة على أن إلغاء الجلب البحري وإبقاء الجلب يؤكد أن السلاطين لم يكن لديهم نية التخلي عن أحد أوجه ترفيههم بأي صورة.

بينما لم نقف على كيفية حفظه وتخزينه ريثما تصل الجمال الحاملة له إلى مصر عن طريق البر، بخلاف أن قطع الثلج الكبيرة المجلدة كانت تُغلف جيداً بالقش والخيش خشية تسرب الهواء إليها فتعمل على إذابتها(٤٠)، بيد أن طول المسافة بين مناطق جلب الثلج في أعالي جبل الثلج وبين مصر أو بلاد الحجاز من ناحية أخرى، وتعرض النقلات لدرجة حرارة مرتفعة خلال شهور الصيف في مصر وإقليم الحجاز تعكس وجود تقنية ما لحفظ الثلج لم نقف عليها.

ولكن قد يُفسر الأمر بطريقة أخرى ممثلة في أن كثرة عدد الجمال التي حملت الثلج ناهيك عن السفن – وهما ينقلان كميات ضخمة على ما سنشير إليه لاحقاً – لم يكن يعني سوى أن الكمية الكبيرة التي كانت تخرج بها تلك الجمال لم يكن يصل منها إلى مصر سوى كمية قليلة، ولأجل ذلك عُولجت المشكلة بالإكثار من الحمولات

في وقت متقارب لتعويض الكميات التي تذوب بفعل الحرارة، وقد أشار بعض المؤرخين إلى وجود تقنية أخرى بيد أنهم لم يُسهبوا في شرح تفاصيلها.

ولكن يمكن تقديم تصور لها في ضوء إشارات من مصادر أخرى؛ فقد أشار الجزري إلى وجود خزانات للثلج في بلدة قارا[٤١] الواقعة شمال إقليم الحجاز كانت تمد السلاطين بالثلوج التي يستهلكونها خلال مواسم الحج[٤٢]، ولا شك في أن هجن الثلج القادمة من دمشق هي التي كانت تمد خزانات قارا بالثلج قبيل ذلك، كما يُفهم من إشارة غامضة عثور المماليك البحرية - الذين فروا من وجه عز الدين أيبك عقب مقتل أقطاي - على مدينة غامضة أطلقوا عليها المدينة الخضراء وحددوا موقعها بأنها تقع في تيه بني إسرائيل، أي في المنطقة الحدودية الفاصلة بين حدود مصر وبلاد الشام تقريباً[٤٣]، والشاهد من الرواية أن هؤلاء المماليك عثروا مصادفة على خزان للمياه بتلك المدينة شديدة الحرارة وقد وصفوه بأنه أبرد من الثلج[٤٤]، وفي ضوء هذه الإشارات مع توقع وجود تقنية معينة حفظت كميات الثلج المنقولة طوال ذلك الطريق الطويل شديد الحرارة أن تكون تلك التقنية ممثلة في توفير السلاطين خزانات لحفظ الثلج في محطات معينة على طول الطريق، والمعروف أيضاً أن الملح كان يُستخدم في حفظ المواد الغذائية وبخاصة السمك المملح[٤٥] ولا نستبعد أن يكون قد تم استخدامه في حفظ الثلج للوصول به في كميات مناسبة إلى مصر وغيرها.

ولم يكن تخزين الثلج في بلاد الشام لأجل الاستهلاك المحلي يُسبب مشكلة، وبخاصة أنها بلاد الثلج ولا تحتاج إلى نقله لمسافات بعيدة، وبالرغم من ذلك فقد خُزن الثلج في بلاد الشام ولكن لاستخدامه في فصل الصيف، حيث تخصص خبراء من الثلاجين ممن ينتمون إلى قرية حلبون[٤٦] التابعة لدمشق في دك الثلج في مغارات طبيعية ولا يبدأ بيعه إلا في شهر أيار/مايو[٤٧] .

أما في لبنان فقد وُجدت لهذه الغاية مباني متينة مقببة ومطمورة جزئياً في منحدرات الجبال، يقوم العمال بدك الثلج عبر فتحات في سقف هذه المباني، وعندما تمتلئ تلك المخازن فإنهم يُغلقون الفتحة ولا تُفتح قبل شهر أيار، ويُلحظ أن تلك المغارات كانت في أعالي الجبال حيث تنخفض درجة الحرارة الأمر الذي يساعد على

نجاح عملية التخزين[٤٨]، وعلى ما يبدو فقد اعتاد الصليبيون - أيضاً - تخزين الثلج في صهاريج لحفظه مدة طويلة "..وفيها (أي سنة ٦٩٧هـ)...عُدم (أي الثلج) بالكلية...وأن المكارية راحوا إلى بلاد طرابلس وفتشوا جبالها فوجدوا في صهاريج قديمة من زمان الفرنج لها فوق عشرين سنة لم تُفتح، ووجدوا فيها قطع جليد...[٤٩]".

أما في مصر فيُشار إلى أنه كان بمجرد وصول الثلج من بولاق إلى القلعة على ظهور البغال للواصل بحراً وعلى ظهور الجمال للواصل براً فإنه "...يُخزن في صهريج..." أُعد له خصيصاً[٥٠]، وأكد العُمري بأنه "... إذا سُفّرت (نقلات الثلج) سُفّر معها من يتداركُها من ثلاجين لمداراتها...[٥١]"، وهذا يعني من جهة أخرى أن ثمة من تخصص في تلك المهنة من الثلاجين، وقد عمل بتلك الحرفة بعض أهل دمشق وبخاصة في الصيف وذلك بقطع الثلج وجلبه على ظهور الحمير إلى دمشق[٥٢]، كما ألمحت بعض المصادر إلى امتهان أصحاب مهنة الفقاقيع جلب الثلج سواء لأجل حرفتهم لتبريد الفقاقيع أو لبيعه خاماً في دمشق، ناهيك عن بحث المكارية عنه في الجبال في مواسم شحه وبيعهم إياه في مدينة دمشق[٥٣]، كما كان الثلج يجلب بالطرق ذاتها إلى مدينة حماة التي لم يكن يسقط بها الثلج، فكان يجلب إليها من المدن المجاورة لها "...ولا يبقى بها الثلج إلى الصيف كما يبقى في بقية الشام وإنما يُجلب إليها مما يجاورها وحولها...[٥٤] ".

ولم يكن كل من حمل لقب الثلاج عاملاً بالثلج، بدليل ما رواه ابن الثلاج عن جده بأنه حمل اسم الثلاج بالرغم من أنه لم يبع الثلج يوماً[٥٥]، بيد أن المصادر ضنت بما يكشف الستار ويزيحه عن أرباب هذه المهنة بخلاف إشارات عامة ضمناها حديثنا السابق، ويُرجح الباحث أن يكون أغلبهم شامي الجنسية باعتبار بلاد الشام موطناً للثلج ومن ثم الثلاجين بعكس مصر، ويؤيد ذلك عودة من أشرف على نقل الثلج إلى مصر- سواء بحراً أم براً - فور انتهاء مهمتهم إلى الشام[٥٦] .

ولكن لم نقف لهم على تنظيم ما، وما إذا كان لهم رئيس أو شيخ، بخلاف أنهم ارتبطوا بديوان الإنشاء على اعتبار صدور المراسيم التي حددت أوقات عملهم عنه، وقد نظمت تلك المراسيم كيفية جلب الثلج إلى مصر في موعده، وفرضت لهم

الدولة مكافأة لقاء جلب الثلج "...وللمجهزين به من الخلع والإنعام رسوم مستقرة وعوائد مستمرة، وقد نبه على ذلك كله لموضع الفائدة فيه...[٥٧]"، كما كانوا يحصلون على مزايا العودة إلى الشام على خيل البريد وكان "...الواصلون بها على المراكب يعودون على البريد في البر...[٥٨] "، وهذا يُعد امتيازاً خاصاً لهم بالعودة إلى مواطنهم على خيول البريد.

ويبدو من فرض الدولة رسوماً تُحصل سنوياً من الثلاجين أنه قد تم تنظيم تلك العملية وبخاصة في دمشق، وقد ارتبطت ضريبة الثلج بنوع معين من الفاكهة وهو العنب"..."قلت: والشحماني والبيسموني والعاصمي يأخذوا مكسه نسبة الفاكهة كل سبعة آلاف درهم، ويُباع العنب مدة ست شهور، منها أربع شهور، كل يوم من ثلاث مائة حمل إلى أربعمائة وخمسين حمل، وبعض الأيام يصل إلى خمس مائة حمل، هذا من غوطة دمشق، وأما الجبلي فمكسه لدار الطعم مع الثلج في السنة بسبعين ألف درهم، يُضاف لدار الطعم خمسة وثلاثين ألف درهم (العنب) والثلج بخمسة وثلاثين ألف درهم[٥٩] ".

وأضاف الجزري موضحاً قيمة المكس المفروض على الثلج مرة أخرى بقوله "...الثلج يؤخذ منه للسلطان الربع ويُنقص من أول النهار إلى آخره الربع، مكسه في السنة خمسة وثلاثين ألف درهم، وضامن وديوان، وغيره خمسة ألف درهم تكملة أربعين ألف درهم، يُباع في السنة ما يُوضع على الفقاع وما يُشرب بالماء في الصيف بماية ألف درهم وستين ألف درهم[٦٠] " وذلك في حدود عام ٧٣٦هـ، كما قُدرت الضرائب المفروضة على الثلج في الرها في عصر قطز سنة ٦٥٨هـ بخمسة آلاف درهم سنوياً[٦١] ، وهذا يعني أن أغلب البلاد الشامية كانت تدفع تلك الضريبة أو الرسوم طالما يتوافر لباعتها من الثلوج التي يبيعونها لسكان مدنهم.

ولا ريب في أن تلك الرسوم كانت تُفرض إما على باعة الثلج وإما على من يستخدمون الثلج من باعة الفقاع، وقد تفاوتت أسعار الثلج في بلاد الشام بحسب توفره أو شحه، فكان يُباع الرطل في مواسم الشح بدرهم وثلث "...وفيها قلت المياه جداً بدمشق، وغلا سعر الثلج بالبلد جداً إلى أن أبيع الرطل منه بدرهم وثلث...[٦٢] "،

وهذا يعني أن سعر الرطل كان أرخص من ذلك في موسم توافره سواء بدرهم أول أقل، وكان العامة يقبلون على شرائه، ولكن كان يُسيء بعض الباعة استغلال حاجة الناس له فيرفعون سعر الرطل بأثمان مبالغ فيها، أو يستغلون حاجة الناس إليه ويتفننون في التحايل عليهم وبيعهم الثلج حتى وإن كان مصدر مياهه غير نقي من مياه البرك وما شابهها[٦٣] ، وذلك على غرار التحايل الذي يحدث في أصناف أخرى من السلع.

ويبدو دور الدولة واضحاً مرة أخرى بإصدارها مراسيم من ديوان الإنشاء إلى نواب دمشق والثلاجين لحثهم على جلب الثلج إلى مصر في موعده "...مكاتبة بسبب حمل الثلج إلى الأبواب السلطانية: وتُبْدى لعلمه الكريم أن المرسوم الشريف اقتضى تجهيز نقلات الثلج إلى الشراب خاناه الشريفة على العادة، ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالي بسرعة تجهيز النقلة الأولى بحيث لا تتأخر أكثر من مسافة الطريق على ما هو المعهود من همته العالية وتقدماته السعيدة...[٦٤] "، أما عن علاقة الثلاجين بالديوان فيُبررها القلقشندي بقوله "...وقد جرت العادة أن واصل الثلج في كل نقلة في البر والبحر تُكتب به رجعة من ديوان الإنشاء وهذا هو وجه تعلقه بديوان الإنشاء[٦٥] "، كما يبدو دور الدولة في الإنفاق على مراكز الهجن وعلى مراكب حمل الثلج والملاحين وعمال البريد المرافقين للثلج[٦٦] .

نقل الثلج إلى مصر:

أولاً: النقل البحري

أشار ابن فضل الله العُمري (ت:٧٤٨هـ/١٣٤٨م) - ونقل عنه القلقشندي (ت:٨٢١هـ/١٤١٨م) - إلى المراكب التي تحمل الثلج بقوله: "...كانت في أيام الملك الظاهر بيبرس...ثلاث مراكب في السنة لا تزيد على ذلك...ودامت على أيام سلطاننا (يعني الملك الناصر محمد بن قلاوون (ت:٧٤١هـ/١٣٤١) في السلطنة الثالثة، وبقيت صدراً منها، ثم أخذت في التزايد إلى أن بلغت أحد عشر مركباً...وربما زادت على ذلك...وآخر عهدي بها من السبعة إلى الثمانية تُطلب من

الشام، ولا تَكلف طرابلس إلا المساعدة، وكل ذلك بحسب اختلاف الأوقات ودواعي الضرورات...[٦٧] " .

و يقدم النص بعض الترجيحات والتلميحات، منها:

١- ظل عدد المراكب التي جلبت الثلج في عصر السلطان بيبرس (ت:٦٧٦هـ/١٢٧٧م) محددة بثلاث لم تزد على ذلك حتى انتهاء عصر الناصر محمد (٦٩٣-٧٤١هـ/١٢٩٣-١٣٤١م).

٢- ارتبطت الزيادة من ٣ مراكب في عهد الظاهر بيبرس إلى ١١ مركباً بإشراف طرابلس على شحن الثلج، وهذا يُرجح أن بقاء طرابلس في أيدي الصليبيين حتى استرداد قلاوون لها عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م قد أعاق الإكثار من جلب الثلج بحراً.

٣- يُلحظ ارتباط زيادة الطلب على الثلج بعصر المماليك الجراكسة، وبالرغم من قوة العصر الأول واستقراره داخلياً فإنه لم يكن كذلك على المستوى الخارجي بحيث كُثفت كافة جهود الدولة لأجل محاربة الصليبيين والمغول، الأمر الذي لم يُعط الفرصة للسلاطين للبقاء طويلاً في مصر حتى نهاية عصر الناصر محمد، بعكس الحال مع العصر الثاني الذي واكبه هدوء الجبهة الخارجية حتى ظهور الخطر البرتغالي ثم العثماني في نهاية عصر الجراكسة، بينما كثرت المشاكل الداخلية وتراجع الاقتصاد، وبالرغم من ذلك فقد ازداد جلب الثلج طوال ذلك العصر وبكميات كثيرة، مما ينم عن بعض طرائق الحياة التي عاشها السلاطين في ظل تضخم المشاكل الداخلية والخارجية.

لم يُشر القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) إلى كميات الثلج المجلوبة في عصره، واقتصر هو وابن شاهين الظاهري على نقل مادة العُمري عن الثلج دون تحديثها بمعلومات عصرهما، وقد امتد عصر المماليك بعد القلقشندي ما يقرب من قرن من الزمان، وبعد وفاة ابن شاهين ما يربو على نصف قرن[٦٨]، بيد أن إشارة بدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ) إلى توزيع السلطان المؤيد شيخ المحمودي (ت:٨٢٤هـ/١٤٢١م) لماء السكر المكرر الممزوج بالثلج في مجالس العلم يُشير

ضمناً إلى استمرار جلب الثلج إلى مصر حتى الربع الأول من القرن التاسع الهجري، ولكن دون الوقوف على الكميات المجلوبة وطرق جلبها وكيفيته[٦٩] .

٤- ظل جلب الثلج قاصراً على المراكب حتى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي استحدث وسيلة أخرى جديدة ممثلة في الهجن، وقد حدث ذلك التحول نتيجة لتفضيل السلاطين استخدام الكميات المنقولة براً على المنقولة بحراً، واقتصر استخدام المنقول بحراً على توزيعه على أرباب المناصب والعمائم في الدولة "...لأنه يصلُ أنظف وآمن عاقبة على أن المتسفرين يأخذون الجاشني منه بحضور أمير مجلس وشاد الشرابخاناه السلطانية وخزانها[٧٠] ، أما المنقول في البحر فلما عدا ذلك، أما المنقول في البحر فلما عدا ذلك..."، وبالرغم من ذلك فقد ازدادت نسبة الثلج المجلوب بحراً حتى وصلت إلى ٢٥٠%، وبالرغم من تراجع الكمية قليلاً ثم تأرجحها بين الزيادة والنقصان فإن ذلك يشير ضمناً إلى اتساع قطر دائرة من يستخدمون الثلج في مصر، لأنه كان يكفي السلاطين حتى عصر الناصر محمد ثلاث مراكب فقط، بينما صار الثلج يجلب براً وبكميات كبيرة، وتزامُن ذلك مع زيادة هائلة في الكميات المجلوبة بحراً.

وقد أشار ابن خلكان إلى أن السلطان لاجين المنصوري (١٢٩٤-١٢٩٨م) "...أبطل الثلج الذي كان يُنقل في البحر من الشام إلى مصر، وقال: أنا كنت في الشام وأعلم ما يُقاسي الناس في وسقه..."، ويمكن تبرير تلك السياسة ببعض المتغيرات السياسية والاقتصادية التي أثرت على نقل الثلج آنذاك وبخاصة تعرض مصر لأزمة اقتصادية ارتفعت معها الأسعار وندرت الأقوات وذلك في العام السابق على سلطنة لاجين ٦٩٥هـ ثم استمرارها خلال عصره، الأمر الذي قد يُفسر مع عوامل أخرى تتصدرها مشاكله السياسية سبب إلغاءه جلب الثلج بحراً، ولكن الناصر محمد أعاده مرة أخرى مع عودته الثالثة إلى عرشه (١٣٠٩-١٣٤١م).

طريق سفن الثلج حتى وصولها إلى الشرابخاناه في القاهرة

تُقلع مراكب نقل الثلج من موانئ بيروت وصيدا وصولاً إلى ميناء دمياط في مصر[٧١]، "...والمراكب تأتي دمياط في البحر ثم يخرج الثلج في النيل إلى ساحل

بولاق".. ثم ينقل...إلى مراكب بحر النيل ثم يؤتى به إلى بولاق، ثم ينقل على البغال إلى الشرابخاناه الشريفة...(٧٢)"، وعلى ما يبدو فإن اختيار دمياط قد نجم عن قرب المسافة فيما بينها وبين كل من الشام (بيروت وصيدا) والقاهرة، وبخاصة أن عامل الوقت كان في غاية الأهمية في تلك المهنة، لأنه قد يترتب على إهدار الوقت فشل المهمة بالكامل نتيجة لذوبان الثلج قبل وصوله إلى الشرابخاناه وبالتالي عدم الإفادة منه.

ثانيا: النقل البري

استحداث جلب الثلج براً

كانت محطات هجن الثلج تتخذ من بعض مراكز البريد بين مصر وبلاد الشام محطات لها خلال موسم نقل الثلج، وفي ذلك يشير ابن فضل الله العمري إلى أن مراكز هجن الثلج "...لا تعمر بالهجن إلا أوان نقل الثلج إلى حضرة السلطان بقلعة الجبل، وذلك مما حدث في أثناء دولة سلطاننا تغمده الله برحمته واستمر...(٧٣)"، ووافقه القلقشندي بقوله: "...قد ذكر في "التعريف" أنه مما حدث في الدولة الناصرية (أي عصر الناصر محمد)... واستمر، وقد كان قبل ذلك لا يُحمل إلا في البحر خاصة...(٧٤) "، بينما اختلف معهم ابن شاهين الظاهري بقوله: "...وأما مراكز الثلج من دمشق إلى قلعة الجبل مما حدث تحميله في أيام السلطان الملك الظاهر برقوق تغمده الله برحمته على الهجن، وكان قبل ذلك لا يُحمل إلا في البحر خاصة من الثغور الشامية وهي بيروت وصيدا إلى ثغر دمياط المحروس...(٧٥) ".

بيد أن ابن شاهين الظاهري لم يوفق في نسبته جلب الثلج إلى مصر عن طريق البر إلى الظاهر برقوق، وبخاصة أن القلقشندي المعاصر للظاهر برقوق لم يُشر إلى ذلك وإنما وافق العمري في نسبة استحداثه إلى عصر الناصر محمد بن قلاوون، ناهيك عن عدد من الإشارات التي قدمتها المصادر مشيرة إلى حمل الثلج على ظهور الهجن من بلاد الشام إلى مصر وبلاد الحجاز وبخاصة في مواسم حج السلاطين أو زوجاتهم وبناتهم وكبار الأمراء، وقد جاءت أغلب هذه الإشارات خلال عصر الناصر محمد والفترة التالية له، مما يعني واقعياً أن جلب الثلج إلى مصر عن

طريق الهجن قد سبق عصر الظاهر برقوق بكثير، وبخاصة أن العُمري ترحم على السلطان الذي استحدث الهجن بقوله "...تغمده الله برحمته"، وهذا يعني أن السلطان المشار إليه قد تُوفي في حياة العمري ومن ثم يؤكد نسبة استحداث الهجن إلى الناصر محمد وليس الظاهر برقوق.

وفي الإطار ذاته أشار ابن خلكان إلى أن السلطان لاجين المنصوري الذي "...طالت أيامه في نيابة دمشق...هو الذي أبطل الثلج الذي كان يُنقل في البحر من الشام إلى مصر، وقال: أنا كنت في الشام وأعلم ما يُقاسي الناس في وسقه..."، وأضاف الصفدي على لسان لاجين في المعنى ذاته "...وأدري ما يجري على الرعايا في وسق الثلج في المراكب، وما يجدونه من التعب والمغارم والكلف...(٧٦) ".

وتُعدُ نظرة الصفدي هنا أكثر قرباً من الطبقات التي حُرمت من الإفادة من الثلج، الأمر الذي جعل لاجين يحرص على عدم تكبدهم مشقة جلب بضاعة لن يستفيدوا منها أو ينتفعوا بها، وقد يكون من المتغيرات السياسية والاقتصادية التي أثرت على نقل الثلج بالسلب ما حدث من جوع وغلاء وذلك من جراء غلاء الأسعار وندرة الأقوات في ظل سلطنة كتبغا - السابق على لاجين المنصوري مباشرة سنة ٦٩٥هـ - بحيث مات الناس من الجوع وأكل بعضهم أولادهم وما إلى ذلك(٧٧)، وقد عظُم الوباء بحيث مات الكثيرون، وكانوا يدفنون الفقراء في حفر كبيرة ويسندون الكبار بالصغار(٧٨) ، الأمر الذي قد يُفسر مع أمور أخرى تعرض لها لاجين اضطراره إلى إلغاء جلب الثلج.

ناهيك عن أن انتظام جلب الثلج من بلاد الشام إلى مصر لم يكن يتوقف على الهدوء السياسي الداخلي والخارجي فحسب، وإنما توقف أحياناً على ظروف توفره في بلد المنبع التي اعتادوا الحصول عليه منها، وقد لُوحظ ندرة الثلج في دمشق في أول سلطنة لاجين "...وفيها (أي عام ٦٩٧هـ خلال مدة سلطنة لاجين) قل الثلج بدمشق وغلا سعره، وكان مبدأ ذلك أنه أبيع مدة شهر رمضان كل رطل بدرهم، وهو شهر حزيران، واستمر يُباع كل رطل بدرهم إلى سلخ شوال، وفي ذي القعدة عُدم بالكلية

وبقي يُباع الفقاع بلا ثلج إلى السنة الآتية..."، وهذا أيضاً يوضح إلغاء جلب الثلج بحجة تكبد من يحضرونه مشقة بالغة(٧٩).

ولا يوجد في ذلك تعارض مع ما قدمه العمري حينما أشار إلى أن الناصر محمد قد استحدث نقل الثلج على ظهور الهجن مثلما زاد في عدد المراكب من ثلاث إلى إحدى عشرة مركباً سنوياً، وقد اعتلى لاجين السلطنة في الفترة ١٢٩٤-١٢٩٨م بعد إقصاء الناصر محمد عن السلطنة وهو الإقصاء الأول له، ثم عاد الناصر إلى عرشه مرة أخرى عام ١٢٩٨م حتى عام ١٣٠٨م، وحينما وقف حائراً أمام المنافسة التي اشتدت بين الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار وقرر اعتزال السلطنة وغادر إلى حصن الكرك، فانتهز بيبرس الفرصة واغتصب العرش(٨٠)، واكتفى الأمير سلار منه بنيابة السلطنة، واستمر الحال على هذا الوضع سنة واحدة ثار بعدها العامة والأمراء وهتفوا في الطرقات ضد بيبرس وسلار، فعاد الناصر إلى عرشه في احتفال شعبي كبير سنة ١٣٠٩م(٨١) ، وتُعدُ سلطنة الناصر الثالثة (١٣٠٩-١٣٤١م) سلطنته الحقيقية التي دامت حتى وفاته، وهي الفترة التي ظهرت فيها مواهبه وقدراته، وفيها أيضاً استُحدث جلب الثلج عن طريق الهجن، وهذا يعني مرة أخرى أن جلب الثلج ظل قائماً – على إشارة العمري – منذ سلطنة بيبرس البندقداري وتوقف مع لاجين المنصوري(٨٢) ، وأُعيد جلبه ولكن بكثرة وتنوع حينما أُضيف إليه الجلب البري مع سلطنة الناصر محمد الثالثة(٨٣) .

المحطات البرية

اتخذت هجن الثلج من بعض مراكز البريد مقارا مؤقتة لها خلال موسم نقل الثلج "...وهي لا تعمر بالهجن (الضمير عائد على مراكز البريد بين بلاد الشام ومصر) إلا أوان نقل الثلج إلى حضرة السلطان بقلعة الجبل...(٨٤) "، و"...هذه المراكز من دمشق إلى الصنمين، ثم منها إلى بانياس ثم منها إلى أربد ثم منها إلى بيسان ثم منها إلى جينين ثم منها إلى قاقُون، ثم منها إلى لُدّ، ثم منها إلى غزة، ثم منها إلى العريش، ثم منها إلى الورّادة، ثم منها إلى المُطيلب، ثم منها إلى قطيا، ثم منها إلى القصير، ثم منها إلى الصالحية، ثم منها إلى بلبيس ثم منها إلى القلعة(٨٥) ".

وبدراسة النص السابق في ضوء ما قدمته المصادر الأخرى فإنه يمكن الوقوف على بعض الملحوظات المهمة نجملها فيما يلي:

١- استهل العُمري مراكز الانطلاق براً بمدينة دمشق بالرغم من أنه ذكر أن السفن كانت تُعد من قبل مملكتي الشام وطرابلس، وهذا يعني أنه قصد بمملكة الشام مدينة دمشق كمدلول اصطلح عليه أهل العصر، وحينما خرج المؤرخ من التعميم إلى التخصيص فإنه ترك تعبير مملكة الشام إلى مدينة دمشق(٨٦).

٢- تمر هجن الثلج على ما يقرب من ١٥محطة بعد انطلاقها من دمشق وصولاً إلى القلعة، وتتحمل دمشق نفقة هجن محطات: الصنمين وبانياس(٨٧) (استبدلها ابن شاهين الظاهري بمدينة طفس) وأربد وبيسان(٨٨) وجنين(٨٩) وقاقون(٩٠) ولد(٩١) وغزة والعريش(٩٢)، وهي مدن جنوب فلسطين وبالرغم من أن جنين كانت تابعة لها فقد كُلفت صفد(٩٣) بالنفقة عليها وعلى هجن محطتها، وقد استرد بيبرس صفد عام ٦٦٣هـ/١٢٩١م، بينما تحملت خزانة مصر - وبخاصة المناخات السلطانية(٩٤) - كلفة المحطات الأخرى الممثلة في الورادة(٩٥) والمطيلب وقطيا(٩٦) والقصير(٩٧) والصالحية وبلبيس(٩٨) .

٣- لم تستقر تلك الهجن في تلك المراكز سوى في أوان نقل الثلج التي حددها بأنها تبدأ من شهر يونيه وصولاً إلى نهاية شهر نوفمبر، بحيث استقر في كل محطة ٦ هجن: خمسة لحمل الثلج وواحد للهجان.

٤- وصل عدد نقلات الثلج التي تقوم بها تلك الهجن إلى ٧١ نقلة "... مُتقارب مدد ما بينها، ثم صار يزيد على ذلك..."، وهو ما يفهم منه أنه قد زاد على ٧١ نقلة، مما يعني أيضاً أنه بتوزيع هذا الرقم على عدد الشهور التي يُحمل فيها الثلج فإننا نستنتج نقل ما يقرب من ١١ إلى ١٢ نقلة كل شهر تقريباً، والنقلة عبارة عن حمولة خمسة جمال من الثلج، وهذا يعني أن عدد الجمال الواصلة بحمولات الثلج إلى الشرابخاناه في الشهر قد تراوحت ما بين ٥٥ و٥٨ جمل، وأنه جرى استخدام ما يقرب من ٣٥٥ جمل طوال موسم جلب الثلج، بينما يقوم ما يقرب من ٨٥ جمل بالتغيير على تلك الحمولات في كل شهر بمراكز هجن الثلج، هذا

بخلاف جمل مع كل نقلة للهجان يكون فضلة مع كل نقلة، وهو جهد شاق للغاية ومكلف مادياً للدولة. وبالرغم من أنه لم يحدد الكمية التي يحملها الجمل من الثلج فالمعروف أن الجمل يحمل ما يوازي أربعة أضعاف وزنه.

٥- جُهز مع كل نقلة بريدي بيده تذكره كي يتداركه ويحميه، كما كان يُجهز مع كل نقلة أيضاً - مثلما الحال مع المراكب المعدة لنقلة - ثلاج خبير بحمله ومداراته. يحمل على فرس ببريد ثان "...واستقر في وقت أن يُحملَ الثلاجُ على خيل الولاية".

٦- قسمت النفقة على جمال جلب الثلج ومراكزها والقائمين عليها على كل من دمشق وصفد والمناخات السلطانية في مصر.

استخدام الثلج في العصر المملوكي

تنوعت مناحي استخدام الثلج في العصر المملوكي، فاستخدم الثلج المنحوت أي ذي الأشكال المختلفة والمستوية والمبشورة في شرب الفقاع، وعلى ما يبدو أن الفقاع كان يُباع تحت الساعات أو عند باب البريد في دمشق، كما كان يباع في بعض المدن الشامية الأخرى مثل بعلبك وكان يقدم في كيزان أُشير إليها حينما جمدت البرودة كيزان الفقاع في بعلبك "...وأما بعلبك فجمد فيها كيزان الفقاع، وذلك غير منكر بها...(٩٩)".

وعلى ما يبدو فقد ارتبط شرب الفقاع بمزجه ببعض قطع الثلج وذلك على ما ورد في ترجمة أبي محمد بن علي بن أبي الحسن بن منصور الدمشقي الحريري (٦٤٥هـ) "...خرج الفلك المسيري يقسم قرية له (والقرية من أعمال دمشق على ما يشير الجزري) وأخذ معه جماعة، فلما قسموا ووصلوا إلى زرع قالوا: نمشي إلى عند الشيخ علي الحريري، فقال أحدهم: إن كان صالحاً يُطعمنا حلوى سخنة بعسل وسمن وفستق وسكر، وقال الآخر: يُطعمنا بطيخاً أخضر، وقال الآخر: يسقينا فقاعاً عليه الثلج، فلما وصلوا تلقاهم بالرحب وأحضر شيئاً كثيراً من جملته حلوى كما قال ذلك الرجل فأمر بوضعها بين يدي مشتهيها، ثم أحضر بطيخاً آخر وأشار إلى مشتهيه بالأكل، فلما فرغوا نظر إلى صاحب شهوة الفقاع وقال: يا أخي كان عندي تحت

الساعات أو باب البريد. ثم صاح يا فلان ادخل، فدخل فقير وعلى رأسه دست فقدع وعليه الثلج منحوت، وقال: بسم الله اشرب...[١٠٠].

كما استُخدم الثلج في تبريد المياه سواء في مصر أم في بلاد الشام خلال شهور الصيف، دلالة على الرفاهية وأبهة الملك، وفي هذا أعلنها العُمَري صريحة بأنها واحدة من خصائص الملوك الذين كانوا يُبالغون في الرفاهية والحرص على امتلاك الأشياء العزيزة التي لا تتوفر لغيرهم، علاوة على ترطيب بعض المشروبات الأخرى كالليمون والماء المسكر، فضلاً عن تقديمه مع أنواع معينة من الفاكهة وبخاصة العنب بأنواعه في دمشق حتى ارتبطت الضريبة المفروضة على العنب بضريبة الثلج أحياناً، وثمة دلالات كثيرة على وجود رابط يكاد يكون متلازماً بين توفر الفواكه والثلج معاً في مصر وبلاد الشام بل وبلاد الحرمين الشريفين في موسم الحج "...وفي العشر الأوسط من ذي القعدة (سنة ٧٣٢هـ) جهزوا من دمشق إلى المدينة النبوية الشريفة...لمولانا السلطان...ما يلتقوه بها ثلاثة وأربعين حمل، منها ثلاثة عشر حمل فاكهة كمثرى وسفرجل صيفي وتفاح وغير ذلك من أصناف الفواكه والأعناب...وسيروا خلف الثلاجين، وسموا لهم أن يسافروا إلى قارا ويحضروا من صهاريجها جليد الثلج ويسافروا به إلى عقبة أيلة يلتقوا به مولانا السلطان...[١٠١] ".

كما استُخدم الثلج للتعذيب وأحياناً للقتل مثلما استخدمت كمادات الثلج لعلاج آلام الرأس والصداع، إضافة إلى وضع الثلج على الجروح الخطيرة الناتجة عن المشاركة في المعارك لمنع حدوث التهابات، واستخدمه الأطباء أيضاً لترطيب القدم المصابة بالنقرس لتخفيف ألمها، أو لخفض درجة حرارة الجسم المحموم[١٠٢]، وربما لأجل ذلك نصح بعض الأطباء باستخدام أنواع معينة من المشروبات المضاف إليها ثلج لمعالجة أمراض بعينها.

وأكد ابن الجزري على أن التوت الشامي الأسود المر إذا خُلط بالسكر والثلج فإنه يُعالج مرض الخوانيق وكذلك الصفراء والحمايات جميعها "...وتغذي غذاء حسناً، ويُسن عليه إذا لازمه بالسكر والثلج...[١٠٣]"، وعدد ابن الاخوة شراب الثلج

ضمن الأشربة التي ينبغي على المحتسب مراقبتها لدى طائفة الشرابيين الذين يعملون في صناعة العقاقير والأشربة، كما ذكر أكثر من نوع من شراب الليمون(١٠٤) .

ومن جهة أخرى فإن البلدان التي كان يتساقط عليها الثلج مثل دمشق كان أهلها يلهون بالثلج في موسم سقوطه "...وفي يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأول (٧٢٧هـ) وقد هطل بدمشق ثلج طول النهار، وكذلك يوم السبت والأحد، فلما كان ليلة الإثنين خامس عشره وقع طول الليل ثلج عظيم، وأصبحت دمشق وأسطحتها وطرقاتها وجبالها وغوطتها وأشجارها بيضاً، وكان سمكه وارتفاعه عن الأرض نحو ثلث ذراع، ولعبوا وتراجموا به الناس في الحارات والأسواق...(١٠٥) "، أو كتابة أحدهم صورة الفيل بالثلج وتلقبه بالفيل(١٠٦) ، وهذا جانب آخر ترفيهي ولكنه لم يتوفر سوى لسكان البلاد التي يسقط عليها الثلج على غرار أغلب المدن الشامية.

وقد أشار بدر الدين العيني (ت:٨٥٥هـ) إلى قيام الملك المؤيد شيخ(١٠٧) بتوزيع شراب السكر المكرر المضاف له الثلج على الجالسين من العلماء والأدباء في مجلس علمه الأسبوعي يومي الأحد والأربعاء "...ثم إذا فرغوا يأمر بأن يسقوا من السكر المكرر المعد لنفسه في سلطانيات كبار، في كل سلطانية قطعة كبيرة من الثلج في أيام الصيف والهواجر، وهذا شيء لم يفعله أحدُ من الملوك قبله..."، كما كان يكرر ذلك مع طائفة من القراء والوعاظ والفقهاء في ليالي الجمع، ويكرر الأمر ذاته معهم "...وأعد لهم من الأطعمة المختلفة، والمواكيل الطيبة والمشارب الرائقة والفواكه البديعة بحيث إنهم كانوا يأكلون من ذلك ويحملون...(١٠٨) ".

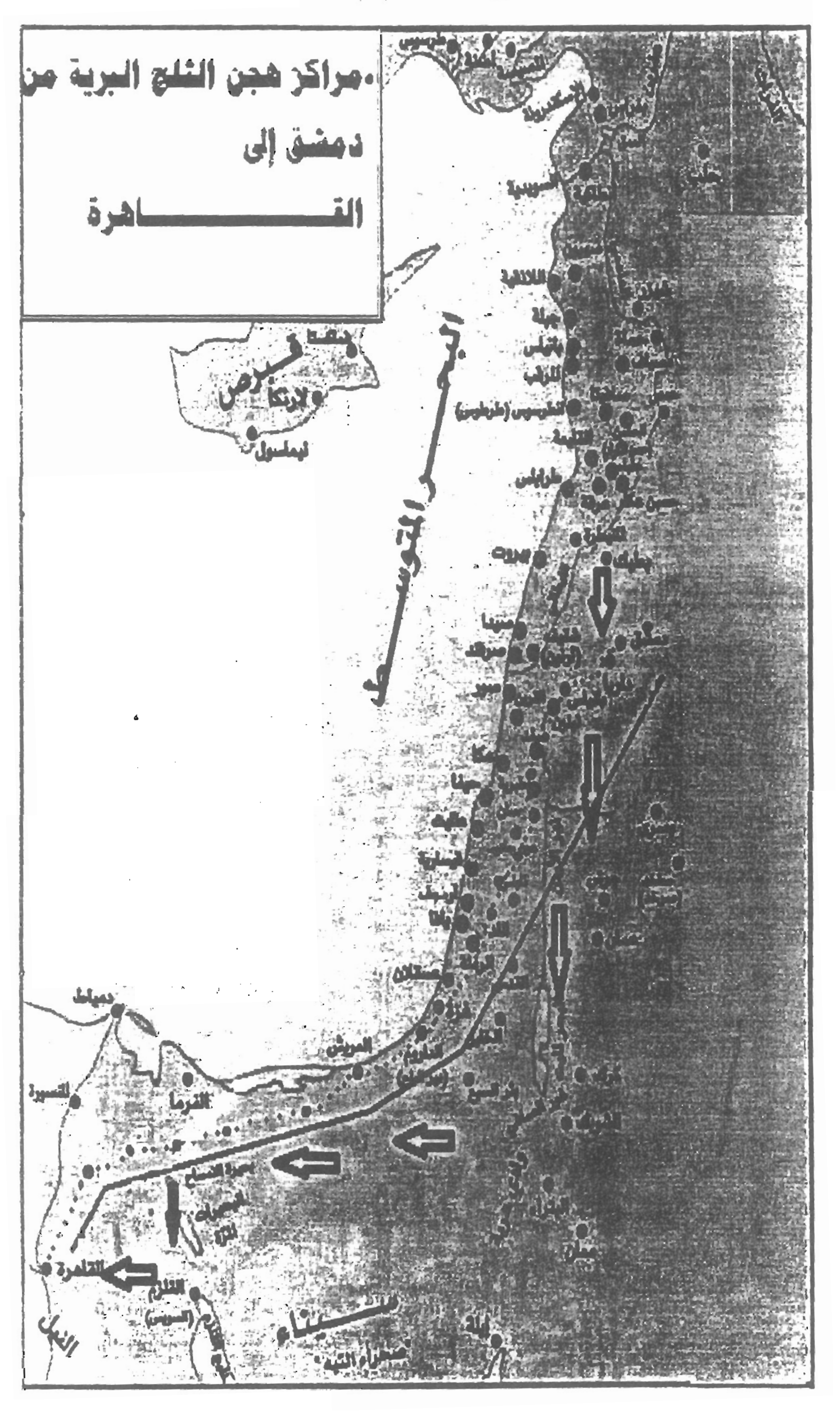
الثلج والعلاقات السياسية الخارجية

كان للثلج نصيب من سياسة المماليك الخارجية، وذاك يتضح من نقل الثلج بحراً عبر "...الثغور الشامية ببيروت وصيدا، ويُفرض على البقاع وبعلبك ارفادهما في ذلك..."، والمعروف أن البقاع وبعلبك كانتا من أعمال دمشق، وهذا يعيدنا إلى الاستفسار عن علاقة دمشق بتجهيز الثلج المنقول بحراً، حيث يُنقل الثلج بمساعدة من البقاع وبعلبك حتى يصل إلى بيروت وصيدا، ومن هناك يتم شحنه بحراً إلى دمياط في مصر.

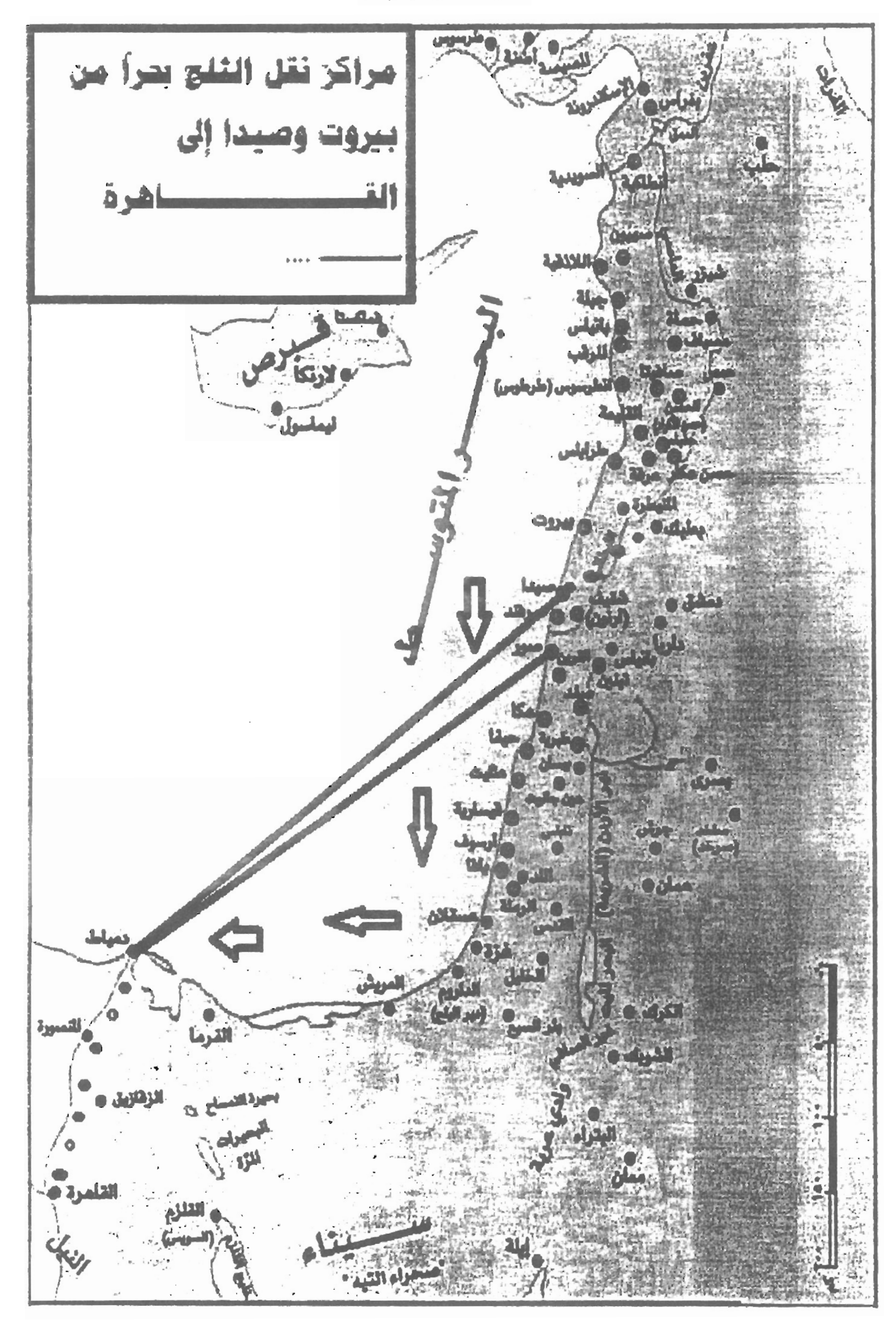
وقد أشرفت طرابلس فيما بعد على شحنه إلى مصر على ما أشار ابن فضل الله العمري، بينما استرد الأشرف خليل مدينتا بيروت وصيدا عام ١٢٩١م اللتان تشرفان على مراكب الثلج منذ أيام الظاهر بيبرس وربما من قبله أيضاً، وهذا قد يعني أيضاً أن الاتفاقيات والهدن التي عُقدت بين المسلمين والصليبيين الذين يسيطرون على بيروت وصيدا قد تضمنت بعض البنود التي نظمت عدم التعرض للمراكب التي ستحمل الثلج من صيدا وبيروت، وبخاصة أن علاقات بيبرس وغيره من سلاطين المماليك بالصليبيين كانت من منطلق القوة، حتى إنه في تهديد بيبرس لأمير طرابلس- الذي اعتاد محالفة المغول ضد المسلمين - بعث له بهدية من طيور الصيد والثلج "...فلما بلغ السلطان ذلك سير إليه (أي إلى أمير طرابلس) غزلاناً مذبوحة وضبعاً وحمل ثلج ورسالة يقول فيها: لما اتصل بنا امتناعك من التصرف خوفاً على نفسك وهجرانك للصيد الذي هو غاية مرامك بغينا إليك نصيباً من الإجحاف بك والميل عليك...[١٠٩]"، وذلك في حدود عام ٦٦٩هـ.

وبالرغم من أن بيبرس كان يتوعد أمير طرابلس بسبب تخلفه عن مقابلته كما جرت عادته وقت صيد الأمير بيبرس ونظراً لأنها الإشارة الوحيدة التي وقف عليها الباحث سواء ما يخص بيبرس أم باقي عصره وعصور السلاطين الذين عاصروا الصليبيين حتى عام ١٢٩١م، ولأجل ذلك فإنه يجب أن تُعامل تلك الرواية بحذر وبخاصة أن مفضل ابن أبي الفضائل لم يستطرد في تفصيل ما حدث بين الظاهر بيبرس وبين أمير طرابلس.

خريطة رقم (١)


مراكز هجن الثلج البرية من
دمشق إلى
القاهرة
البحر المتوسط
قبرص
لارنكا
دمياط
الفرما
العريش
القاهرة
سيناء

خريطة رقم (٢)


مراكز نقل الثلج بحراً من
بيروت وصيدا إلى
القاهرة
قبرص
البحر المتوسط
حلب
بيروت
دمشق
صور
عكا
حيفا
عسقلان
غزة
العريش
دمياط
المنصورة
الزقازيق
الفرما
القاهرة
النيل
سيناء
صحراء التيه
الكرك
الشوبك
البتراء

هوامش البحث

(١) ابن شاهين (زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري الحنفي ت: ٩٢٠هـ): نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، جـ١، ق٤، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٧٢.

(٢) الجزري (شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري القرشي ت: ٧٣٨هـ): تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، طـ١، جـ٢، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨م، ص٨٦٦.

(٣) على الرغم من أن مصر لم تكن من البلاد التي يسقط عليها الثلج فإن سقوطه بها كان من النوادر التي نوه لها مؤرخو مصر المملوكية، وعدوه خرقاً للعادة، وكان بعض المصريين يقومون بجمع القطع الكبيرة منه فيبيعونه أو يستهلكونه، وكان يُجمع منه لبعض السلاطين ويقدم لهم لشربه مخلوطاً بالماء "...وبينا السلطان (أي المؤيد شيخ المحمودي عام ٨١٧هـ) بالريدانية أحضر إليه طبق فيه من البرد الذي نزل بمصر فشربه، وقال بأنه يصل إلى بلاد الثلج..."، وكما نوه الباحث فإن سقوط الثلج في مصر كان من النوادر ومن الأمور قليلة الحدوث واندهش مؤرخو مصر حين حدوثها، كأن تنعقد الثلوج في أحد السنوات على جدران المنازل في الصعيد، واشارة إلى رؤية الثلج على قمة جبل المقطم ولكن مثل هذه الظواهر وغيرها لم تكن تحدث كل يوم ولا يقاس عليها. ابن شاهين: نيل الأمل، جـ١، ق٤، ص١٤٦، جـ٢، ق٥، ص٢٦٣. وأيضاً: المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي ت: ١٤٤٢م/٨٤٥هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، جـ٤، ق١، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ص٢٨٠، ٢٨١؛ ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت: ٨٥٢هـ): إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق: حسن حبشي، جـ٣، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٣٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ٢، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٩٦١م، ص١٣.

(٤) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ١، ص٣٩٤.

(٥) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ٢، ص٨٥٨.

(٦) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ٢، ص٨٦٦.

(٧) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ١، ص١٥١.

(٨) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ٢، ص١٠٢٣.

(٩) اليونيني (موسى بن محمد اليونيني ت:٧٢٦هـ): ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٦١م، ص٥٤٢.

(١٠) ابن شاهين: نيل الأمل، جـ١، ق٣، ص٢٦٤، جـ٢، ق٥، ص٢٦٣، جـ٢، ق٨، ص٢٦٣. وأيضاً: المقريزي: السلوك، جـ٤، ق١، ص٢٨٠، ٢٨١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٢، ص١٣.

(١١) بدر الدين العيني (أبو محمود محمد بن أحمد ت: ٨٥٥هـ): السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق: فهيم شلتوت، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٢٧٤، ٣٢٧.

(١٢) ابن شاهين: نيل الأمل، جـ١، ق٣، ص٢٦٤، جـ٢، ق٥، ص٢٦٣، جـ٢، ق٨، ص٢٦٣. وأيضاً: المقريزي: السلوك، جـ٤، ق١، ص٢٨٠، ٢٨١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٢، ص١٣.

(١٣) ابن شاهين: نيل الأمل، جـ١، ق٤، ص١٧٢.

(١٤) أشار ابن عنين إلى أن البلدان التي يتوفر لها أحد أربع أشياء لا ينبغي أن يفارقها أهلها على اعتبار أنه يتوفر لهم ما ينبغي أن يتوفر من الغاية في الرفاهية "...كل ما في الدنيا مفرق هو في بلد مجموع وموجود، ويفضل عليهم بالأحمرين والأبيضين، قال: وما هما؟ قال: العنب الداراني، والعنب العاصمي، والأبيضين القنبريس والثلج". انظر: الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ٢، ص٨٨٢. وابن عنين هو أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسين بن عنين، الأديب الرئيس الشاعر الدمشقي، توفي سنة ٦٣٠هـ. انظر: أبو الفدا (إسماعيل بن محمد بن عمر ت: ٧٣٢هـ): المختصر في أخبار البشر، جـ٣، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت)، ص١٦٥-١٦٦. بينما أشار بعض أهل العلم إلى أن البلد التي يتوفر لها سلع غذائية رخيصة ومعايش كثيرة لا يحل لعاقل أن يتعداه وكان بقصد بحديثه مدينة دمشق حينما بعثَ بغلامه إليها بقليل من المال ليشتري لهما طعاماً"...فعاد الغلام ومعه شواءٌ وفاكهةٌ وحلواء وفقاع وثلج. فنظر أبو الحكم إلى ما جاء به وقال عند استكثاره: أوجدت أحداً من معارفنا. فقال: لا وإنما ابتعت هذا بما كان معي وبقيت منه هذه البقية، فقال أبو الحكم: هذا بلدٌ لا يحل لذي عقلٍ أن يتعداه..."١٤. وذلك في منتصف القرن السادس الهجري تقريباً. انظر: ابن العبري (أبو الفرج جمال الدين ابن العبري): تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطوان صالحي اليسوعي، ط١، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٨٩٠م، ص١٢٧.

(١٥) العُمري (شهاب الدين بن فضل الله العمري ت:٧٤٨هـ/١٣٤٨م): التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة، ١٣١٢هـ، ص١٩٩؛ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن على ت: ١٤١٨م/٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ١٤، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م، ص٣٩٥-٣٩٧؛ ابن شاهين (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ت:

٨٧٣هـ): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح: بولس راويس، باريس، ١٨٩٤، ص١١٧-١١٨.

(١٦) أشار الهلال العسكري في كتابه الأوائل إلى أن الحجاج ابن يوسف الثقفي كان من أوائل من قام بكثير من الأمور على غرار أنه أول من أطعم على ألف مائدة، وأول من أجار بألف درهم، وأول من قعد على سرير في حرب، وأول من أطاف الناس حول الكعبة للصلاة، وأول من اتخذ المحامل، وأول من نقش على يد كل رجل اسم قريته ورده إليها، وما إلى ذلك، وما يعنينا أنه كان السباق في مجال الثلج بحيث كان أول من حُمل له الثلج إلى العراق. انظر: أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران توفي بعد عام ٤٠٠هـ تقريباً): كتاب الأوائل، تحقيق: وليد قصاب ومحمد المصري، ط٢، جـ٢، دار العلوم، الرياض، ١٩٨١م، ص٥٣-٥٨.

(١٧) اليافعي (عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ت:٧٦٨هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، جـ١، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند، ١٣٣٩هـ، ص٢٤٠.

(١٨) ابن أيبك (أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري): كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: أ. هارمان، جـ٩، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٩٧١م، ص٣٠٦-٣٠٧. وأيضاً: الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت: ٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناءوط، ط١، جـ١٥، مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ ، ص١٧٠-١٧١.

(١٩) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٥، ص١١٧-١١٨.

(٢٠) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٤، ص٤٧٧.

(٢١) اليافعي: مرآة الجنان، جـ١، ص٣١٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٥، ص٤٧٧.

(٢٢) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط١، جـ٦، دار صادر، بيروت، ١٣٥٨هـ، ص١١٦-١١٨.

(٢٣) ابن الجوزي: المنتظم، جـ٦، ص١١٨.

(٢٤) ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧، ص١٩٢؛ الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ت: ٧٦٤هـ): أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون، جـ٤، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٩٩٨م، ص١٦٣- ١٧٦.

(٢٥) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت: ١٤٤٢م/٨٤٥هـ): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد حلمي أحمد، جـ٢، القاهرة، ١٩٩٦م، ص١٣.

(٢٦) الشرابخانة: هي من البيوتات التي توضع بها الأشربة والسكر والحلوا والعقاقير والفواكه وما أشبه ذلك لها مهتار وعدة شرابدارية. وهي خزانة الشراب المعبر عنها بالشراب خاناه "...كان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات الفائقة التي لا توجد إلا فيها وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصيني من الزبادي والصحون والبراني والأزيار ما لا يقدر عليه غير الملوك الرابعة خزانة الطعم وهي المعبر عنها في زماننا بالحوائج خاناه وكانت تحتوي على عدة أصناف من جميع أصناف القلويات من الفستق وغيره والسكر والقند والأعسال على أصنافها والزيت والشمع وغير ذلك ومنها يخرج راتب المطابخ خاصا وعاما وينفق لأرباب الخدم وأصحاب التوقيعات في كل شهر ولا يحتاج إلى غيرها إلا في اللحم والخضر. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١٢٤.

(٢٧) ناصر خسرو (ت: ٤٨١هـ): سفرنامة، ترجمة: يحي الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص١٢٣.

(٢٨) ابن شداد (بهاء الدين المعروف بابن شداد ت: ٦٣٢هـ/١٢٣٤م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار المنار، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٥١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٢١، ص٢٨٥.

(٢٩) النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت: ٧٣٧هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، طـ١، جـ٢٨، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م، ص٢٨٩.

(٣٠) ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت: ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ٧، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٨م، سنة٣٦١.

(٣١) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ت: ٦٨١هـ): وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس،جـ١، دار صادر، بيروت، ١٩٨٧م ص٣٠٦.

(٣٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥، ص٧٦-٧٨.

(٣٣) وُلد الأسعد بن المهذب بن مينا بن زكريا، المعروف بابن مماتي سنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م) في أواخر الدولة الفاطمية التي كانت تحتضر وتلفظ أنفاسها الأخيرة، ونشأ في كنف والده" المهذب بن مينا المعروف بالخطير"، الذي أسلم هو وأسرته في محضر الوزير أسد الدين شيركوه بعهد الناصر صلاح الدين الأيوبي.

وكان المهذب يشغل رئاسة ديوان الجيش -وهو من المناصب الرفيعة في الدولة- قبل إسلامه. أما جد الأسعد "أبو المليح مينا" فقد انتقل من أسيوط والتحق بدواوين الفاطميين ونال حظوة عندهم وترقى في المناصب حتى عين مستوفيا للدواوين، وقد نشأ "الأسعد" محبا للعلم والأدب حيث

تردد على مجالس الأدب التي كانت تعقد في دار أبيه، وصادف ما يدور فيها هوى في نفسه، فمال إلى الأدب ونظم الشعر، وبعد إسلامه أخذ يختلف إلى مجالس الفقهاء والمحدثين، ويتزود بثقافة إسلامية رفيعة. ولما توفي "المهذب بن مينا" سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م) خلفه ابنه "الأسعد" في منصبه، وتولى" ديوان الجيش"، ثم أضاف إليه صلاح الدين "ديوان المال"، الأمر الذي يشير إلى ثقة صلاح الدين في كفاءة الأسعد واطمئنانه إليه، لأن رئاسة ديوان المال كانت تعد من أهم الوظائف في العصور الإسلامية ومن أجلها شأنا.

وقد ذكر له ياقوت الحموي أكثر من عشرين مؤلفا، منها: كتاب "حجة الحق على الخلق في التحذير من سوء عاقبة الظلم"، وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي يكثر النظر فيه.

ومن هذه المؤلفات: "نظم السيرة الصلاحية"، أو سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي أهداه الأسعد للملك الظاهر ابن صلاح الدين، وكتاب "الفاشوش في أحكام قراقوش"، وكتاب "الشيء بالشيء يذكر"، وكتاب "تلقين اليقين في الكلام على حديث بني الإسلام على خمس"، وكتاب "سر الشعر"، وكتاب "علم النثر "وكتاب "باعث الجلد عند حادث الولد." ويعد كتابه "قوانين الدواوين" أهم ما خلفه الأسعد بن مماتي حيث يصف حالة البلاد المصرية خلال القرن السادس الهجري. انظر في ذلك:

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي ت: ٦٢٦م): معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٣م؛ المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت: ١٤٤٢م/٨٤٥هـ): كتاب المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩١م. وأيضاً: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

(٣٤) لم يفت أدباء ذلك العصر التعبير عن قيمة الثلج وما يمثله من الرفاهية ومن ذلك ما ذكره البعض منه قول أنشده بعض الشعراء للخليفة هارون الرشيد:

وشـــربة الثـلج بـمـــاء عــذب   تستخرج الشـــكر من أقصى القلب

ومنه قول الأسعد بن مماتي عن غازي بن يوسف:

وشاهدته في الدست والثـلـــج دونـــه   فقلت: سليمان بن داود والــصـــرح

وقول محمد بن المرزبان:

وتمزج الثلج في العساس لدى ال   قيظ وعند الشتاء بــالــعـــســل

وقول الحسين بن أحمد بن محمد:

الخيش نصف النهار يعجبـــنـــي   والماء بالثلج بـــارداً خـــصـــرا

وقول عوف بن محلم الخزاعي أحد العلماء والأدباء والرواة:

وقلت: زدني وتفــهـمـتــه   والثلج في الصيف من العيش

وقال أحدهم وقد وقع بدمشق ثلج عظيم:

طمت الثلوج على الوهاد مع الربى   فالكون يعجب منه وهو مفضفض

فانــهض لتجمع شمل أنس مقـبـل   بلـــذاذة فـالـيوم يوم أبـــيض

كما قال أهل الشام أشعاراً في الثلج حينما كان ينقطع سقوطه "...ولقد انقطع الثلج أيام الخريف، وكانت الحاجة إليه شديدة...فجعلت في ذلك عدّة مقاطيع..." من ذلك:

ثلـج يا ثلج يا عظيم الصفـــات   أنـــت عندي من أعظم الحسنات

قـد قلت لما رأيت الثلج منبســطـاً   علـى الطريق إلى أن ضل سالكها

ما بيض الله وجه الأرض في حلـب   إلا لأن غياث الـــدين مـالـكـهـا

ومن شعر راجح الحلي:

ألا هبوا فقد أرج الخزامـى   وغنى الطير وانتشت النعامى

أتتنا من جبال الثلج سـكـرى   تنفض عن معاطفها الغماما

كأن مطارح الحانات بـاتـت   تثج على معاطفها المـدامـا

راجح بن إسماعيل بن أبي القاسم الحلي الأسدي: دخل الشام وجال في بلادها ومدح ملوكها ونادمهم، وكان فاضلاً جيد النظم عذب الألفاظ حسن المعاني، وتوفي بدمشق سنة سبع وعشرين وسبعمائة، ومولده سنة تسعين وخمسمائة. انظر: الكتبي (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ت: ٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، جـ١٤، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م، ص٣٨-٤١؛ بدر الدين العيني: عقد الجمان، ص٤٠٨. وأيضاً: ابن معصوم الحسني: سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، ص٢١٨؛ ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد ت: ٦٨٤هـ): تاريخ الملك الظاهر، اعتناء: أحمد حطيط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩، ص١٤٣-١٤٥.

(٣٥) من ذلك "...جاز بعض الأمراء المغفلين على بياع الثلج فقال: أرني ما عندك، فكسر له قطعة وناوله، فقال: أريد أبرد من هذا، فكسر له من الجانب الآخر، فقال: كيف سعر هذا؟ فقال: رطل بدرهم، ومن الأول رطل ونصف بدرهم... "، "...مرض بعض المغفلين فدخل عليه طبيب فسأله عن حاله، فقال: قد اشتهيت الثلج، فقال: الثلج يزيد في رطوبتك فينقص من قوتك، فقال: أنا أمصه وأرمي تفله... ". انظر: ابن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين، دار الفكر اللبناني، لبنان، ١٩٩٠م، ص١٠٦.

(٣٦) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩.

(٣٧) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩.

(٣٨) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩.

(٣٩) الصفدي: أعيان العصر، جـ٤، ص١٦٣- ١٧٦.

ولم نقف في مصادر تلك الفترة على حيثية اتخاذ القرار على وجه أكثر شمولاً، ولكن يمكن استنطاق بعض تصرفات منكوتمر الذي حجب السلطان لاجين المنصوري وحكم باسمه بوصفها أحد أو بعض أسباب اتخاذ ذلك القرار، فقد سعى منكوتمر الذي ولي نيابة السلطنة إلى الاستحواذ على عقل لاجين وحجبه عن الخاصة والعامة "...وانفرد بالأمر والنهي واستبد بالإعطاء والمنع، وانتهى أمره إلى أن كان إذا رسم مخدومه بمرسوم لم يكن بإشارته يعطله ويوقفه، ولا يعمل به ولا يصرفه، وإن أقبل على أحد في غيبته أو خص نساناً بهيبته أبعد ذلك الشخص ودحره وأقصاه وأخره، وأمر بأن تحمل الأموال الديوانية إلى داره، فكان النضر منها ما يحمل إليه، ولا يحمل إلى بيت المال إلا ما هو من الجهات المتعذرة والنقدات المستنزره". وقد انتهت أحداث الصراع على العرش بقتل كل من السلطان لاجين ومنكوتمر وطغجي وكرجي واتفاق باقي الأمراء على عودة السلطان الناصر محمد للعرش مرة أخرى. انظر:

بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، طـ١، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣م، ص١٠٥. وأيضاً:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, Texte Arabe et Traduit Francais,Tome II, Par E. Blochet, in Patrologia Orientalis, Vol ٢٠, Paris, ١٩١٩, pp.٤٣٣-٤٣٤.

(٤٠) رئيفة حلواني: البريد في عصر المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، بيروت، ص٨٤؛ نظير حسان سعداوي: البريد في الدولة الإسلامية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٣، ص١٣١-١٣٢. وأيضاً:

Sauvaget, J., La poste aux chevaux dans l'empire des Mamelouks, Librairie d'Amerique et d'orient adrien- maisonneuvem Parise, ١٩٤٩, pp.٧٧-٧٨

(٤١) قارا: مدينة تقع في شمال المملكة العربية السعودية بمنطقة الجوف، وهي عبارة عن مدينتين (سكاكا - قارا)، وقارا هي الجزء الأصغر منها.

(٤٢) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ٢، ص٥٣٣-٥٣٤. وأيضاً: ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، جـ٩، ص٣٠٥-٣٠٧.

(٤٣) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، جـ٨، ص٢٦-٢٧.

(٤٤) ابن أيبك الدوداري: كنز الدرر، جـ٨، ص٢٦-٢٧. وأيضاً: المقريزي: السلوك، ص١٢٩

(٤٥) ابن الإخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي): معالم القربة في أحكام الحسبة، نقله وصححه: روبن لوي، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت)، ص١١١،٩٥.

(٤٦)حلبون: قرية جميلة من قرى جبال القلمون تتبع لمحافظة ريف دمشق، من القرى الجبلية الجميلة الموجودة في سلسلة الجبال السورية شمال دمشق، وتقع حلبون في وسط سلسلة الجبال شمال غرب دمشق، تبعد عن مدينة دمشق حوالي ٢٧كم. انظر أيضاً:

Sauvaget, La poste aux chevaux dans l'empire des Mamelouks, pp.٧٧-٧٨

(٤٧) رئيفة حلواني: البريد، ص٨٤. وأيضاً:

Sauvaget, La poste aux chevaux dans l'empire des Mamelouks, pp.٧٧-٧٨.

(٤٨) رئيفة حلواني: البريد، ص٨٤. وأيضاً:

Sauvaget, La poste aux chevaux dans l'empire des Mamelouks, pp.٧٧-٧٨.

(٤٩) الجزري: تاريخ حوادث، جـ٢، ص١٧٧.

(٥٠) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩. وقد أشار ابن شداد إلى قيام الظاهر بيبرس ببناء صهريج كبير مدرج في قلعة الجبل وساق إليه الماء من أكثر من جهة، ولكن لم يشر المؤرخ إلى علاقة ذلك الصهريج بصهاريج الثلج التي اختصت بتقديم مشروب السلطان فور وصول نقلات الثلج، أو إلى وجود صهاريج خاصة بالثلج غير هذا. انظر: ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص٣٥٣.

(٥١) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩.

(٥٢) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ٢، ص١٧٧

(٥٣) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ٢، ص١٧٧

(٥٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٣٦.

(٥٥) ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧، ص١٩٢.

(٥٦) العُمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩.

(٥٧) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩.

(٥٨) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩.

(٥٩) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ٢، ص٨٨٠.

(٦٠) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ٢، ص٨٨٥.

(٦١) ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري الحلبي ت: ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق : سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٦م، ص١٢٩.

(٦٢) بدر الدين العيني: عقد الجمان، ص٣٢٧.

(٦٣) ابن حجر: إنباء الغمر، جـ٣، ص٣٥

(٦٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٧، ص٢٠٣.

(٦٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٩٥-٣٩٧.

(٦٦) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٩٧.

(٦٧) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩.

(٦٨) مر ابن شاهين على عصر الناصر محمد بن قلاوون في كتابه "نيل الأمل" ولكنه لم يُشر إلى أي معلومة مفيدة عن الثلج في هذه الفترة، واكتفى برصد الآثار الجانبية لسقوط الثلج على المجتمع والحياة ولكن دون التنويه للجانب الترفيهي للثلج وذلك بعكس ما كنا نتوقع على ما فعل كل من ابن فضل الله العمري والقلقشندي في شأن الثلج. انظر: ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١١٧-١١٨.

(٦٩) العيني: السيف المهند، ص٢٧٤.

(٧٠) وظيفة شاد الشرابخاناه: هو المسئول عن ما يرد و يخرج من خزانة الشراب، وعليه مسئولية خطيرة لأنه يجب عليه التأكد من صحة المشروبات وسلامتها.

(٧١) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩.

(٧٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٩٥-٣٩٧.

(٧٣) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩.

(٧٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٩٥-٣٩٧.

(٧٥) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١١٧-١١٨.

(٧٦) الصفدي: أعيان العصر، جـ٤، ص١٦٣- ١٧٦.

(٧٧) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ١، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٧٨) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، جـ٨، ص٣٦٣-٣٦٥.

(٧٩) الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ٢، ص١٧٧.

(٨٠) الصفدي: أعيان العصر، جـ٤، ص١٦٣- ١٧٦.

(٨١) لم يتردد الناصر محمد بن قلاوون في الانتقام من كل من بيبرس وسلار، فحبس الأول في الجب حتى مات جوعاً أما الثاني فأعدمه شنقاً. انظر:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, ,Tome III, pp.٥٣١.

(٨٢) الصفدي: أعيان العصر، جـ٤، ص١٦٣- ١٧٦.

(٨٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٩٥-٣٩٧.

(٨٤) العُمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩؛ ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١١٧-١١٨.

(٨٥) العُمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٩٩؛ ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١١٧-١١٨.

(٨٦) يُشير مفضل ابن أبي الفضائل إلى كل من دمشق وصفد والكرك وحماة وحلب وألبيرة وطرابلس بوصفها نيابات في ظل سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية "....كان سلار نائباً في القاهرة وكذا بيبرس ونائب الشام جمال الدين الأفرم ونائب الكرك أقوش الأشرفي ونائب الشوبك قبجق ونائب حماة الأمير زين الدين كتبغا ونائب حلب الأمير قرا سنقر ونائب ألبيرة سيف الدين طوغان ونائب طرابلس سيف الدين قطلبك ونائب صفد سيف الدين بليان...". انظر: Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, ,Tome III, pp.٥٣١.

(٨٧) هي بلدة صغيرة ذات أشجار حمض وغيرها، تقع على بعد مرحلتين من دمشق ولها حصن منيع. انظر: القرماني (أحمد بن يوسف القرماني ت:١٠١٩هـ): أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق: أحمد حطيط، عالم، جـ٣، عالم الكتب، بروت، ١٩٩٢م، ص٣٢٠؛ أبو الفدا (إسماعيل بن محمد بن عمر ت: ٧٣٢هـ): تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٨٣٠م، ص٢٤٨.

(٨٨) بيسان: بالفتح ثم السكون وسين مهملة ونون. مدينة بالأردن بالغور الشامي، ويقال: هي لسان الأرض وهي بين حوران وفلسطين وبها عين الفلوس يقال: إنها من الجنة وهي عين فيها ملوحة يسيرة. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٤٨، ٢٤٢.

(٨٩) جينين: بكسر الجيم وسكون ثانيه ونون مكسورة أيضا وياء أخرى ساكنة أيضا ونون أخرى، بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من أرض الأردن بها عيون ومياه رأيتها. انظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص١١٥.

(٩٠) قاقون: بعد القاف الثانية ولو ساكنة ونون: حصن بفلسطين قرب الرملة وقيل: هو من عمل قيسارية من ساحل الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤ ، ص٢٩٩.

(٩١) لُد: بالضم والتشديد، وهو جمع ألد والألد الشديد الخصومة. قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين ويقول عنها أبو الفدا بأنها على شوط فرس من مدينة الرملة. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٢٢٧، ٢٦١.

(٩٢) وصفها أبو الفدا بأنها تقع في الجفار. انظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص١٠٨، ١٠٩.

(٩٣) ربما وقع الاختيار على صفد لأنها تقع قرب الطرف الجنوبي لجبل الثلج الذي تجلب منه أغلب كميات الثلج إلى مصر.انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٨٥، ٩١-٩٧، ص٢٤٠؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٢٦٢.

(٩٤) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١١٧-١١٨.
وقد أشار ابن شاهين في حديثه عن الاصطبلات السلطانية إلى اشتمالها على المناخ الذي به الجمال البخاتي الذي يحوي الجمال النفر فهو مضاف إلى الاصطبلات الشريفة، وكذلك اصطبلي الهجن والنياق، كما أشار إلى سواقي البريد واشحن الذي على المناخات والسروانية والجمالة والنفرية الذين يركبون الماسايرات كان عدتهم ثلاثمائة نفر، الخاص منهم ثلاثون نفراً، والسواس وسواس الخاص والهجانة الذي يتعلق بهم الهجن كان عدتهم أيضاً قديماً ثلاثمائة نفر ومكارية البغال والشارية والبياطرة والسقاءون والخول وغير ذلك مما يطول شرحه. انظر: ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١٢٥-١٢٦.

(٩٥) تبلغ المسافة من الورادة إلى مدينة العريش ما يقرب من ثلاثة فراسخ.

(٩٦) يُشير أبو الفدا إلى قطيا (أو قطية) والورادة بوصفهما من البلدان الواقعة داخل حدود مصر في الجفار المعروف برمل مصر وبه منازل للسفارة وعد قطيا والورادة أشهر تلك المراكز، وبهما سكان ونخيل، وكانت قطيا في العصر المملوكي أحد بوابات دخول مر منالال الشرقي بو يتعرض السفرون للتفتيش ويدفع التجار الضرائب على البضائع. وفي وصفه للورادة أقر بأن بها عمارة بقدر قرية، وهي في وسط الرمل بين مصر والشام، وهي عن العريش في جهة الغرب والجنوب على مسيرة يوم.انظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص١٠٨-١٠٩. وقد ورد ذكرها بوصفها أحد الأماكن التي تلقى فيها ابن حجر العسقلاني تعليمه وذكر بعدها غزة ونابلس والعريش ولكنه ذكرها على الشكل التالي: "قطية". السخاوي: الجواهر والدرر، جـ١، ص١٥٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٧٠؛ ابن شاهين: نيل الأمل، جـ١، ق٢، ص٢٢٣، جـ١، ق٤، ص٨٢؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص١٠٨.

(٩٧) القصير موضع قرب عيذاب بينه وبين قوص قصبة الصعيد خمسة أيام، وبينه وبين عيذاب ثمانية أيام، وفيه مرفأ سفن اليمن، وقال ابن عبد الحكم: المقطم ما بين القصير إلى مقطع الحجارة، وما بعد ذلك من اليحموم، وقد اختلف في القصير، فقال ابن لهيعة: ليس بقصير موسى عليه السلام ولكنه قصير موسى الساحر وقال المفضل بن فضالة: عن أبيه قال: دخلنا على كعب الأحبار فقال: ممن أنتم قلنا من مصر قال: ما تقولون في القصير قلنا قصير موسى، فقال: ليس بقصير موسى، ولكنه قصير عزيز مصر، وكان إذا جرى النيل يترفع فيه، وعلى ذلك فإنه مقدس من الجبل إلى البحر. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص٣٦٧؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٢٣، ٦٩، ١١١.

(٩٨) قال عنها ياقوت الحموي أنها بلبيس "...بكسر الباءين وسكون اللام وياء وسين مهملة كذا ضبطه نصر الاسكندري، قال: والعامة تقول بلبيس، مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة

فراسخ على طريق الشام...". ووصفها القرماني بأنها "...مدينة عظيمة بمصر كثيرة الخيرات ولكنها كانت خراباً..." على عصر القرماني. انظر: القرماني: أخبار الدول، جـ٣، ص٣٢٢.

(٩٩) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٥٤٢.

(١٠٠) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناءوط، ط١، جـ٧، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٩٢م، ص٤٠٠-٤٠١.

(١٠١) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ٢، ص٥٣٣-٥٣٤. وأيضاً: ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، جـ٩، ص٣٠٥-٣٠٧.

(١٠٢) ابن الجوزي: المنتظم، جـ٥، ١٢١-١٢٢.

(١٠٣) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ٢، ص٨٧٨.

(١٠٤) ابن الإخوة: معالم القربة، ص١١٦-١١٧.

(١٠٥) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، جـ١، ص٣٩٤.

(١٠٦) هو عبد الله بن عمر بن الفقيه إسماعيل بن أحمد الكفربطناوي الدمشقي سبط أبي هريرة بن الحافظ الذهبي أمه صالحة، وُلد في سنة خمس وتسعين وسبعمائة أو قبلها بكفر بطنا من غوطة دمشق. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ١٩، ص٢٦٢.

(١٠٧) السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي: قدم من الشام إلى القاهرة وعمره ١٢ عاما وكان ذكياً جميل الصورة فعيّنه السلطان برقوق في الحرس السلطاني ثم جعله أميراً للحج، ثم نائباً للشام. تولّى الخليفة العباسي المستعين بالله الحكم بعد مقتل السلطان فرج ابن برقوق لمدة ستة أشهر ثم عين الأمير شيخ المحمودي نائباً في ٨ من ربيع أول ٨١٥ هجري ثم عيّنه شريكاً في المُلك ولقّبه بالملك المؤيد، ثم استطاع الملك المؤيد الانفراد بالسلطنة في أوائل عام ٨١٥ هـ/١٤١٢م، وأبعد الخليفة العباسي المستعين إلى الإسكندرية وعين أخاه داوود خليفة مكانه في عام ٨١٨هـ/١٤١٥م. انظر: العيني: السيف المهند، مقدمة محقق الكتاب(أ-ص).

(١٠٨) العيني: السيف المهند، ص٢٧٤.

١٠٩- Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, Tome III, pp.٥٣٢-٥٣٣.

* * *